

البَابُ الثَّانِي  
في فضائلها ومنافعها

obeikandi.com

## الباب الثاني

### في فضائلها ومنافعها

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ [الفرقان: ٣٥]، خَرَجَ هَذَا مَخْرَجَ الْاِمْتِنَانِ فِي جَوَابِ سَوَالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ اَهْلِي هَارُونَ اَخِي اَشْدُدْ بِهِ اُرْزِيْ وَاَشْرِكْهُ فِي اَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢]، فَالْوَزِيْرُ مُعِيْنُ الْمَلِكِ وَظَهِيْرُهُ، وَمُدَبِّرُ اَمْرِهِ وَمُدِيْرُهُ.

وقد روي عن النبي ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالْأَمِيْرِ خَيْرًا، جَعَلَ لَهُ وَزِيْرًا صَالِحًا»، وَيُرْوَى: «وَزِيْرٌ صِدْقٌ، إِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِنْ نَسِيَ ذَكَرَهُ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا، أَوْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيْرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكَّرْ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعْنَهُ».

ومما قرأت في وصايا الفرس، عَهْدَ بَعْضِ الْمُلُوكِ إِلَى وَلَدِهِ، فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَصِلَ إِلَى إِحْكَامِ مَا تَرِيدُ مِنْ سِيَاسَةِ الْعِبَادِ، وَضَبْطِ الْبِلَادِ، إِلَّا بِمَعُونَةِ الْوُزَرَاءِ، فَأَعْنِهِمْ عَلَى طَاعَتِكَ بِحَسَنِ مَبَاشَرَتِكَ، وَجَمِيْلِ مَكَافَأَتِكَ، وَعَلَى مَعُونَتِكَ بِمُسَاعَدَتِكَ لَهُمْ بِمَا يُغْنِيهِمْ عَنْ غَيْرِكَ.

وقال كِسْرَى قُبَاذُ: الْوَزِيْرُ مِنَ الْمَلِكِ بِمَنْزِلَةِ بَصْرِهِ وَسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَوُجْهِهِ، لِأَنَّهُ مَغْلَقُ الْأَبْوَابِ، مُتَوَارٍ عَنِ الْأَبْصَارِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَحْفُوظًا مَلْحُوظًا، وَعَلِيهِ أَنْ يَحْفَظَ مَصَالِحَ الدَّوْلَةِ، وَضَوَابِطَ الْمَمْلَكَةِ، لِتَبْقَى عَلَى حَسَنِ نِظَامِهَا، وَجَمَالِ رَوْنَقِهَا، وَيُدْفَعُ عَنْهَا الْآفَاتُ الْعَارِضَةُ الَّتِي رَبَّمَا أَدَّتْ إِلَى فِسَادِهَا، كَالطَّيْبِ

الحاذق، فإنه يشتغل بحفظ الصحة ثم بمداواة ما يعرضُ للجسد من خَللٍ .

وقال الفضل بن سهل<sup>(١٤)</sup> مثلَ الملك العادل مع الوزير الفاضل، كالنهر العظيم الذي مشارعُه تسهله، ومثلَ الملك الصالح مع الوزير الطالح، مثل النهر العذب الطيب الصافي فيه التماسيحُ، لا يَتَنفَعُ به المنتفع إلا نادراً على وَجَلٍ، وكذلك الحديقة المُونقة فيها الأسدُ.

وقال أرسطا طاليس: قد انتخب الإسكندرُ سبعة وزراء يصحبونه في سفره، ويتكَلَّفون مصالِح أمره، وقال لهم: إن الملك قد أشرككم في ملكه، فأديموا النعمة عليكم بنصحه، فارفعوا دعائم الملك، وثبتوا قواعده، وحصّنه بالعدل، وزَيَّنوه بالفضل، وأصلِحوا الخَللَ قبل أن يُعجزكم إصلاحُه، وانتهزوا الفرص قبل فواتها، وكيف ما كان، فأنتم شركاء الملك، فإن ربحتموه ربحتُم، وإن خسرتموه خسرتُم، فاعملوا لكم ولغيركم، والله موفِّقُكم.

وبهذا من الكلام الجامع للفوائد الجَمَّة، والنصائح التامة.

وقرأتُ في كتاب «أخبار السَلْجُوقية»: أن السلطان مَلِكْشاه تَغْيِرَ على وزيره نظام المُلْك علي بن إسحاق<sup>(١٥)</sup>، لتقريب الأعداء، وطول المدة، وأغراض

---

(١٤) الفضل بن سهل السرخسي (٧٧١-٨١٨م) (١٥٤-٢٠٢هـ) وزير المأمون، أسلم على يديه لأنه كان مجوسياً في الأصل. تولى الوزارة والجيش فلقب بذي الرياستين. قيل إن المأمون دس عليه من قتله وتوفي في سرخس التي ولد فيها. الزركلي - الاعلام ج ٥، ص ٣٥٤.

(١٥) نظام الملك علي بن إسحاق (١٠١٨ - ١٠٩٢م) (٤٠٨ - ٤٨٥هـ). هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي من طوس اشتغل بالأعمال السلطانية مع ألب أرسلان وكان وزيراً وعندما جاء ولده ملك شاه أصبح وزيراً وقائماً لعمله خير قيام. انظر الزركلي - ج ٢، ص ٢١٩.

رَدِيْثَةٌ كَانَ يَمْنَعُهُ عَنْهَا وَيَصُدُّهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِخَادِمٍ لِيَبِّبَ مِنْ خَوَاصِّهِ يُعْرِفُ بِصَنْدَلٍ، وَقَالَ لَهُ: ائْخُلْ مَعَهُ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ اسْتَوْلَيْتَ عَلَى بِلَادِي، وَتَحَكَّمْتَ فِي الْمَمْلَكَةِ أَكْثَرَ مِنْ تَحَكُّمِي، وَقَسَمْتَ الْبِلَادَ وَالْأَعْمَالَ بَيْنَ أَوْلَادِكَ وَأَصْهَارِكَ وَغِلْمَانِكَ، ثُمَّ قَدْ اتَّخَذْتَ مِنَ الْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ وَالْأَوْقَافِ مَا يَزِيدُ عَلَيَّ ثُلْثَ الْمَمْلَكَةِ، ثُمَّ مَا تُخْرِجُهُ كُلَّ سَنَةٍ فِي الْبِرِّ وَالصَّلَاتِ حَتَّى كَأَنَّكَ شَرِيكِي أَوْ قَسِيمِي لَا بِالْيَسِيرِ حَظِّي، فَاقْتَصِرْ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ، وَاحْتَفِظْ بِالْأَمْوَالِ، وَاعْزِلْ أَصْهَارَكَ وَأَوْلَادَكَ عَنِ الْبِلَادِ، وَإِلَّا أَطْبَقْتُ دَوَاتَكَ، وَأَبْطَلْتُ تَصْرِفَاتِكَ، وَلَوْلَا أَنِّي أَرَى حَقَّ شَيْخُوخَتِكَ وَقَدِيمَ خِدْمَتِكَ، لَتَجَاوَزْتُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَفَعَلْتُهُ الْآنَ. فَلَمَّا مَضَى الْخَادِمُ، وَأَدَّى إِلَيْهِ الرِّسَالَةَ، لَمْ يَرْتَعْ وَلَمْ يَنْزَعِجْ، وَقَالَ لِلْخَادِمِ:

كَمَا بَلَّغْتَنِي مَا قَالَ، فَبَلَّغْهُ مَا أَقُولُ: سَلِّمْ عَلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ: تَعَلَّمْتُ أَنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ قَارَبَتْ شَمْسِي الْغُرُوبَ، وَلَمْ يَبْقَ لِي غَرَضٌ فِي الدُّنْيَا لِعِلْمِي بِقُرْبِ مَفَارِقَتِهَا، وَقَدْ فَعَلْتُ فِي مَمْلَكَةِ وَالِدِهِ وَمَمْلَكَتِهِ مِنَ الضَّبْطِ وَحُسْنِ السِّيْرَةِ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَالنَّاسُ.

أَمَّا الْأَوْقَافُ وَالصَّدَقَاتُ فَعَلَيَّْ تَعَبُهَا، وَلَهُ ذِكْرُهَا وَأَجْرُهَا، فَهَذَا إِنْ كُنَّا مَنصَفِينَ، وَإِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ فَعَلَيْنَا التَّعَبَ وَالْوِزْرَ، وَلَأَرْبَابُهَا النَّعِيمَ وَالْأَجْرَ.

وَأَمَّا أَهْلِي وَغِلْمَانِي، فَلَمْ أُؤَلِّمْ مِنْهُمْ مَنْ وُلِّيتُ إِلَّا لِلْكَفَايَةِ وَالغِنَاءِ، لَا لِلْقُرْبِ مِنِّي، فَمَنْ قَبَحَتْ سِيرَتُهُ، عَزَلْتُهُ وَاسْتَبَدَلْتُ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: كَأَنَّكَ شَرِيكِي فِي مَلِكِي، فَصَدَقَ. نَعَمْ شَرِيكُهُ وَجَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ شُرَكَاءُهُ، وَخُصُوصاً جَمِيعَ جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ، فَإِنَّ الْمَالَ مَالُ اللَّهِ، جَعَلَهُ تَحْتَ يَدِهِ لِيَصْرِفَهُ إِلَى مَصَالِحِ عِبَادِهِ.

وَأَمَّا رَفْعُ دَوَاتِي، فَهَذَا إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهَا مُقْتَرَنَةٌ بِعِزَّةِ تَاجِهِ، وَدَوْلَةِ سَرِيرِهِ، فَلْتَنْ

تغيّرت حالها، ليتغيرن ذلك الحال، والله أعلم .

فلما عاد إلى السلطان عنده الرسالة، وجَمَ لذلك، ولم يتكلم بشيء، وتعجّب الناس من صبره على ذلك، ثم سار إلى العراق، ودخل إلى بغداد، وخرج نظامُ الملك في أثره، فخرج عليه باطنيٌّ من المُلحدَة فقتله في العاشر من شهر رمضان، وأما السلطان، فإنه مرّض ببغداد، ومات في السادس عشر من شوال، فكان نظام الملك أنطقه الله بسرّ الغيب . وكان نظام الملك من نوادر الزمان، وأفراد أهل الفضل والإحسان، ولقد ساس أهل الدنيا سياسة، وخلّد الذكر الجميل، وادخر الأجر، وأحسن الذخيرة، وكان كما وصفه أمينُ الدولة ابنُ الموصلايا<sup>(١٦)</sup> في قصيدة مطلعها:

ذراها في أزمتهَا تهادى      وغاد بها الثنايا والوهادا  
ولما أن تفرّد بالمعالي      وأدرک من هُداها ما أرادا  
أفاد معالمَ الحمد انتظاماً      وزاد غنائمَ المجد انتضادا  
وقومٌ صولةُ العُدوان عدلٌ      أقامَ به من الحقِّ العِمادا  
وخصّ مواقفَ التقوى بفعلٍ      أمات الغيَّ واستحيا الرّشادا

(١٦) أمين الدولة بن الموصلايا: العلاء بن الحسن بن وهب البغدادي أبو سعد

(١٠٢١-١١٠٤م) (٤٩٧-٤١٢هـ) لقب بأمين الدولة وهو من كتاب العهد العباسي

لفترة طويلة جداً بدأت منذ عهد القائم بأمر الله، كان نصرانياً فأسلم عندما ألزمت

الذمية بلبس الغيار وهو كالزناز ونحوه.

له رسائل وتوقيعات كثيرة وله لقب آخر: منشيء دار الخلافة، انظر: الزركلي - الأعلام

ج ٥، ص ٤٥ .